المستقر العقلي لعقيدة التوحيد

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أود قبل كل شيء أن أنبه الأستاذ سيد قطب إلى أني قلت إن الذهن هو أوسع طريق لإثبات عقيدة التوحيد بوجه خاص. وعقيدة التوحيد واحدة من عقائد الإسلام والدين الصحيح عامة، ولم أقل إنه طريق الإيمان في الأديان الأخرى التي ليس لها أسس عقلية والتي تدين بها ملايين كثيرة من البشر.

وهذا التوضيح قد يفيدنا في تحديد نقطة الخلاف وينهي هذا الجدل الذي طال.

وأنا حين رأيت الأستاذ سيد يقول مقالته عن طريقة القرآن في إثبات عقيدة التوحيد بالمنطق الوجداني وحده خشيت أن يكون قد اتبع المقالة العامة التي شاعت في العالم غير الإسلامي ـ لأن عقائده لا يسعفها الاستدلال العقلي ـ وانتقلت إلى العالم الإسلامي حديثاً، وهي أن الدين أمور لا يمكن إثباتها من طريق الفكر والمنطق وإنما من طريق الوجدان والعواطف التي تستمد من خوف المجهول. وطبيعي أن يستتبع ذلك نفرة كثيرين من العلماء والمفكرين أن يسلكوا أنفسهم في هذا السبيل، وأن يربأوا بعقولهم أن تأخذ شيئاً من غير طريق الإثبات والحكم العقلي.

وما كان للقرآن وهو يعلم أنه سيجابه هؤلاء أن يغفل هذا الميزان الفكري ويتجاهله وقد جاء لعصور فيها رشد الإنسان ونضج قواه الفكرية جميعها.

وإذا كان الأستاذ سيد يفهم من الوجدان أنه يعتمد على « الحس والبداهة والحقائق الخالدة » فالخلاف حينئذ يكون بيننا على الاسم، ولا فرق حينئذ بين المنطق الوجداني، والمنطق الذهني الذي يعتمد هو أيضاً على الحس والبداهة والحقائق الخالدة، ويكون الاسمان لمسمى واحد. فلا داعي إلى أن نقول إن القرآن لم يعتمد على « الذهن » في إثبات عقيدة التوحيد.

ثم ننتقل إلى المثال الذي استشهد به الأستاذ سيد على إثبات القرآن لعقيدة التوحيد بلا جدل ذهني، والذي بينت ما فيه من ضروب الأدلة الذهنية التي أسماها الصديق « محاولات ذهنية » ووصفها بالتهافت. والمثال هو آيات التوحيد في سورة الأنبياء.

وقبل كل شيء أحب أن أسأل: هل حين يقول القرآن أو أي قائل لمعارضيه: « قل هاتوا برهانكم » يكون جدله خالياً من الحركة الذهنية؟ ألا يكون المقام كما قلت سابقاً بهذا الخصوص « مقام جدل كبير يتسع للرد وفرع الحجة بالحجة وتشقيق الدليل وراء الدليل، وليس مقام تسليم بوجدان عن طريق « تعريض الحس والقلب للأصداء والأضواء » والخطابيات والشعريات والنغمات؟

أظن أن هذا التحدي بطلب البرهان يكفي لإثبات أن الفكر هنا هو الأداة الأصيلة، وأن الحركة الذهنية حاضرة لاستعراض القضية وأدلتها.

وقد أغفل الأستاذ سيد استشهادي بهذا القطع من الآية حينما سرد كلامي تمهيداً للتعقيب عليه، وما كان له أن يغفله عامداً وهو يعلم ما فيه!

يقول الأستاذ: « إن القرآن كان أعرف بالنفس البشرية من الأستاذ عبد المنعم فلم يسق الأدلة كما ساقها هو ... »

أما أن القرآن أعرف مني بكل شيء فذلك ما لا جدال فيه. وما زعمت لنفسي غير هذا وما غيرت سياق القرآن، وإنما شرحت ما فهمته من أدلته شأني شأن أي مفسر آخر. بل شأني شأن الأستاذ سيد نفسه حين أباح لنفسه أن يفهم في هذا الآية كما شاء. ولما اعترضت على فهمه لم أسلك هذا السبيل الذي سلكه هو في بيان خطئي، وإنما بينت رأيي وتركته له وللقراء، ولعلي مخطئ، وما زعمت لنفسي أني بهذا التفسير أحدد معاني القرآن وأحمله على ما أريد، فإني أعلم أن من إعجاز القرآن أنه يرضي العقول والعصور جميعاً لأنه حجة الله عليها جميعاً ...

ولنأخذ في سرد اعترافات الأستاذ والرد عليها:

(١) يقول الأستاذ في الاعتراض على قولي: « فالإله [الواحد] هو وحده الذي يخلق ويحيي وينشر الخلائق من الأرض »: [أفلا يعلم أن قضية البعث كانت من القضايا الكبرى التي تولى القرآن إثباتها لهؤلاء القوم. فكيف يجعل منها دليلا على وحدانية الله ـ ولو كان منطق الذهن الجدلي هو المحكم ـ بينما هي نفسها موضع جدل طويل، وليست لإحداهما سابقة على الأخرى، بل هما مظهران لقضية واحدة تثبت بطرفيها أو تتهافت بطرفيها].

وفي هذا القول ثلاثة مواضع للرد:

١ — أنه زاد كلمة [الواحد] من عنده فقد قلت: « فالإله هو وحده هو الذي يخلق ويحيي وينشر الخلائق » ولم أقل فالإله

الواحد . وفرق واضح بين المعانى مع هذه الكلمة وبدونها ؛ ولا داعى لشرح هذا الفرق ، ولست أدرى لم يزيد الأستاذ سيد هذه الكلمة هنا، وينقص الجملة الأخرى عند «قل هاتوا برهانكم»؟

٢ — أنه فهم من كلمة (يُنشرُون) أن الإنشار هو البعث فقط ، وليس الإحياء والخلق بوجه عام بينما المادة تفيد الإحياء عموماً ، ابتداء واستئنافاً ، وحينئذ لا يكون البعث — وهو قضية دينية أخرى تحتاج إلى إثبات — مسوقاً لإثبات قضية التوحيد . وأنا قد وضحت (ينشرون) بهذا المعنى العام حين قلت : « فالإله وحده هو الذى يخلق ويحيى وينشر الخلائق من الأرض ... »

وما كان للقرآن أن يثبت « التوحيد » بالبعث مع أن الأخير لم يثبت بعد ولن يثبت فى هذه الدنيا ولم يره المعارضون حتى يساق كدليل عليهم .

٣ — قول الأستاذ : « وليست لإحداهما (قضيتى التوحيد والبعث) سابقة على الأخرى بل هما مظهران لقضية واحدة تثبت بطرفيها أو تتهافت بطرفيها » قول غريب ! فإن قضية التوحيد وقضية البعث كلتاهما مستقلة عن الأخرى . فبعض الأديان الوثنية الداعية إلى آلهة متعددة يدعو إلى الإيمان بالبعث ومصير آخر ...

وبعض مقالات المؤمنين بالتوحيد لا يحتم البعث على الله بل ترى أن ذلك محض رحمة منه تعالى ومساوقة لحكمته . « كتب ربكم على نفسه الرحمة : ليجمعنكم إلى يوم القيامة ... »

فعقيدة التوحيد هى القضية الأولى فى الإسلام ، يثبتها العقل الكامل مستقلة عما عداها ولا يقبل منها بديلا . وهى قضية لا يعتمد فى إثباتها على شىء غير هذا الكون الموجود الآن الذى يثبت ما فيه من تناسق وانسجام أنه من صنعة يد واحدة هى التى خلقت العين فى جوف الرحم باستعداد ترى معه نور الشمس فى السماء حينما تولد، وليس « البعث » من أدوات إثباتها هنا ، لأن له كوناً آخر تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات .

وقضية البعث قضية تتصل بالمنطق الوجدانى كما تتصل بالمنطق العقلى ، لأنها من جهة قضية « سماعية » أتى بها الدين . وأعظم أدواتها هو التعلق المشبوب بالحياة والقيمة السامية للانسان ، وانتظاره دائماً لمصير أكمل يتمتع فيه بالوجود الكامل الذى يرضى ما فيه من آمال السيطرة والكمال والخلود ، وإنصاف الخير من الشر ومجازاة المحسن والمسىء ، ومن جهة أخرى هى قضية عقلية تقتضيها حكمة الله وتنزيهه ، والذى يرى أن الخير جزاؤه فيه والشر جزاؤه فيه فى الدنيا قبل الآخرة لا يرى حتماً على الله أن يبعث الناس فى حياة أخرى ليجزيهم ، بل يرى ذلك رحمة منه وتكرماً . وحسب الله فى استحقاقه للعبادة أنه خلقنا من العدم لهذا الوجود ، وأرانا هذا العالم العجيب ، وأدخلنا إلى هذه الدار لحظة سواء كتب لنا الحياة ثانية أم ردنا وزج بنا إلى الفناء المطلق من غير رجعة !

فها نحن نرى أن قضية البعث لون آخر غير لون قضية التوحيد الصارمة التى لا تحتمل هذا الجدل . لأنها تستمد بمقدماتها من هذا الكون المحسوس الملموس ومن الطبيعة البشرية المستقيمة التى تستجيب فى يقين واقتناع لهذا الكون الواحد .

فالقول بالتسوية بين القضيتين فى الثبوت أو التهافت قول غريب حقاً ...

(ب) يقول الأستاذ سيد معترضاً على قولى إن التصور البشرى لا يملك أن يجرد الآلهة من صفات الناس فى الخلاف بين الرياسات المتعددة « أفلا يعلم أن القرآن ذاته قد كلف التصور البشرى أن يؤمن بأن الله « ليس كمثله شىء » فكيف كان يكلفه هذا لو لم يكن فى طاقة الإنسان أن يتصوره بوسيلة من الوسائل » .

وهنا أمر واضح فى الفرق بين المسألتين ، إذ أننا حين نثبت (الإله الواحد) يجب أن نعتقد أنه ليس كمثله شىء ، وحين نرى أنه لا مانع من تعدد الآلهة تكون بالطبع قد قبلنا جواز أن يكون له مثل وشبيه ، لأن الآلهة المتعددة أمثال وأشباه .

وحين يكلفنا القرآن أن نعتقد أن الله ليس كمثله شىء ، لا يكون قد كلف التصور البشرى أن يتصور الله بوسيلة من الوسائل كما يقول الأستاذ ؛ لأن هذا تكليف باعتقاد سلبى تجريدى مطموس الصور ، والمؤمن العالم ليس فى ذهنه مطلقاً صورة ما عن الله وإلا دخل فى دائرة التشبيه والتجسيم المؤدى حتماً إلى الكفر والجهل . وإنما فى ذهنه إثبات الصفات الحسنى لله . استنبطها من هذا الكون البديع ، وقال إن خالقه لا بد متصف بها . أما كيف تتعلق هذه الصفات بذات الله فذلك ما ليس للعقل البشرى سبيل إلى تصوره لأنه محدود رهين بقيود التجسيم والتشبيه ، « وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » .

وإذا رفض الأستاذ سيد تفسيرى لدعوى القرآن بفساد العالم حينما تتعدد الآلهة فكيف يفسرها هو ؟ أيفسرها معتمداً على تلك « الصلة الخفية البديهية التى يعتمد القرآن على إيقاظها فى

الحس كالومض السريع فيؤمن للؤمن ويستريح ! » وإذا كنت أمام غير مؤمن ، فكيف يرى هذا الومض إن لم تضاعفه له حتى يصير شعلا تضيء له السبيل؟ أوعلى الأقل تقيم عليه الحجة عريضة مستعلنة لا لبس فيها ولا خفاء؟

إن المؤمن الوثنى المشرك أيضاً مستريح لومض آخر فى وجدانه ، فكيف تقيم عليه الحجة والتذكرة ؟ أليس بالبرهان المحسوس المستمد من استعراض الكون كله بما فيه التجربة الأزلية بفساد الأمور حينما تتعدد الرياسات وتتلاقى الأشباه والأمثال من الآلهة الذين لهم الذكاء والمهارة والقدرة وحبهم لعلو بعضهم على بعض كما يقول القرآن : « ولعلا بعضهم على بعض » ؟

(ح) يقول الأستاذ سيد : « أفلا يرى الأستاذ أن كلامه « فى مسئولية الآلهة » لا يثبت شيئاً ولا ينفيه ؛ فمسئولية الآلهة أمام عبادها هى مسئولية نظرية من جانب واحد لا تحفل بها الآلهة ولا تجيب سائليها وكثير من الناس يحاكم الله مثلها ... »

كأن الأستاذ سيد فرض جدلا أن هناك آلهة أخرى فوق تناول الإنسان لها بالمسئولية ، وفرض أنها فى مستوى من القدرة والعقل لا يمكن الإنسان من محاكمتها ، ولذلك رتب اعتراضه على ماقلته ... ولكن الأمر غير هذا فى الواقع : فالآلهة التى عبدها أكثر البشر ، وخصوصاً العرب آلهة كانت فى متناول أيدى الناس يخلقونها بأيديهم ويسألونها عن قرب ويحاكمونها وقد يأكلونها وقد يضربونها ويجعلونها جذاذاً وقد يصلبونها إذا كانت من البشر الخ . فهى كما قلت تقع عليها التبعة والدينونة « أتعبدون ما تنحتون » « كانا يأكلان الطعام » . أما الله تعالى فلا تقع عليه المسئولية حتى لو وجهت إليه لأن هؤلاء الحسيين يرون الآلهة المجسمات المزعومة ، فيحاكمونها ولا يستطيعون أن يحاكموه تعالى ويسألوه لأنهم لا يرونه ولا يدركونه ولا يحيطون به فهم يحسون أمامه أنهم أمام فراغ مطلق لا يقبض عليه !

والجدل القرآنى هنا يخاطب تلك الحلوم البشرية الصغيرة الطفلية التى لا تحيط فكراً بما تقدم عليه ، ولا بد له أن يذكرها بصغارتها وضآلة تفكيرها فى معاملتها لآلهتها .

(د) أما اعتراض الأستاذ على الدليل التاريخى فى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) بأن القوم لم يؤمنوا بذكر من معه وذكر من قبله حتى يحاسبوا به . فأقول رداً عليه : إن الدليل التاريخى قد لا يخضع للمنطق العقلى ، وإيراده للاستدلال به يكون لاستيفاء ضروب الأدلة واستيفاء الحالات السلبية التى تستعرض لإثبات قضية إيجابية .

فالرسول يقول للمشركين : ما كنت بدعاً من الرسل حينما أدعوكم إلى الوحدانية . ولستم أنتم معتمدين على كتاب منير أو أثارة من علم فى دعواكم تعدد الآلهة . ولو كان فى رسالات هؤلاء الرسل الذين يدين لهم العالم المتمدن حولكم ما يفيد تعدد الآلهة ، إذاً لكان لكم عذركم فى اعتناق التعدد . فأنتم لا تتبعون إلا الهوى والظن والجهالة . فسواء أكانوا مؤمنين بذكر من معه وذكر من قبله ، أم لم يكونوا مؤمنين فإن الدليل التاريخى قد قام على أنهم لا يعتمدون فى التعدد على شىء محترم لدى موازين الآراء والمعتقدات التى كانت فى العالم المتحضر حولهم . ولا يطعن فى صحة الدليل أن المعارض لا يؤمن به ما دام عدم إيمانه بغير دليل

وقد كان يصح الاعتراض السابق من الأستاذ سيد على هذا الدليل لو لم يسبقه الدليل الاستقرائى والدليل التطبيقى اللذان هما جماع القياس الذهنى فى إثبات سلب هذه القضية بالحكم والتمييز والإدراك . ولكنه أتى بعدهما وبعد الدليل العملى ، فكان إيراده للاستيفاء الذى يسد مسالك الجدل على المعارضين .

ولست أدرى ما الذى يستطيع أن يقوله الأستاذ فى تفسير هذه الآيات غير ما قلت ؟ أيقول : « إنها شىء يتصل بالفطرة على استقامتها فتؤمن بالوجه الواحد الصحيح منها إيمان اقتناع وتسليم بدون أسباب وتعليل ؟ .

أم يكون القرآن قد ساقها هكذا اعتباطاً فاستشهد بالبعث على قضية التوحيد وهو لا يعلم أن البعث نفسه محتاج إلى إثبات قبل الاستشهاد به ؟ ! ويكون قد قال « لفسدتا » هكذا مع أنه يعلم أن الآلهة عقلاء هادئون متعاونون لا يختلفون فيفسدوا العالم بخلافهم ! ؟ ويقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » مع أنه يعلم أن مسئولية الآلهة أمام عبادها هى مسئولية نظرية من جانب واحد لا تحفل بها الآلهة وكثير من الناس يحاكم الله مثلها ! فهو أيضاً مسئول وأنه ذكرها للتقرير « وللتأثير الوجدانى » فقط فهى دعوى بغير دليل ، وتقرير لا يقره الواقع ! وهو يقول « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » فيحاكم المعددين إلى ما لم يؤمنوا به فيكون فى هذا مغالطة أو غفلة ؟ !

الحق أننى لست أدرى : أيعترض الأستاذ سيد على أقوال أنا التى ما عدوت بها شرح ما يستفاد من هذه الآيات ولم أغير